دراسات فى الفن

طابعنا المصرى فى فننا

للأستاذ عزيز أحمد فهمى

منذ أحس المصريون حاجتهم إلى إيجاد كيان ذاتى خاص بهم يميزهم من غيرهم ، وأهلُ الفن منهم يجهدون أنفسهم سعياً وراء فن قوى يكون له طابعه المصرى الخاص الذى إذا اتضح وتجلى ثبت للعالم كله أن مصر لها ذوق فنى قائم بذاته ، وأنها بذلك الفن أمة جديرة بالاعتناء حقيقة بأن تمضى بين الشعوب الحية فى هذا الزمان ؛ فإنه لا شىء يميز أمة من أمة إلا الفن، لأنه النتاج النفسى المعبر عن إحساسهم والذى لا يحسه غيرهم، ولا يمكن أن يحسه غيرهم إلا إذا عاش معهم فى ثنايا مجتمعهم وعلى أرضهم وتحت كل المؤثرات المادية والمعنوية التى تؤثر فيهم . وهذا شىء يستلزمه الفن وحده ؛ وهو فى هذا يختلف عن العلم الذى تستطيع كل العقول البشرية أن تساهم فيه وأن تتشابه . فأنت إذا ذكرت لأى إنسان الرقم « ٥ » لم يبعد أن يطوف بذهنه أن الخمسة مجموعة من الاثنين والثلاثة ، أو من الواحد والأربعة ، ولكنه لا يمكن أن يخطر على بال أحد من غير المصريين أن الرقم « ٥ » له معنى آخر وهو مقاومته للحسد ، ذلك أن هذا التحول بمعنى الرقم الأصلى إلى هذا المعنى العرفى الجديد شىء اصطلح عليه المصريون وحدهم وقد هيأتهم له عوامل ودوافع لم تتخلق فى غير البيئة المصرية ، وهذا التحول الجديد اسمه عند أصحاب البلاغة كناية أو مجاز أو أى اسم آخر من هذه الأسماء التى تشير إلى أن الكلمة قد خرجت عن معناها الأصلى إلى معنى جديد . . .

ولا شىء يصنع هذا الصنيع بالكلمات إلا الفن

هذا والمصرى يتعلم الحساب كما يتعلمه الفرنسى ولكنه لا يعرف للرقم (٥) المعنى الذى نعرفه . إن الفرنسى يدرس الهندسة النظرية كما يدرسها اليابانى ، ولكنه حين يطبقها وحين يخرج بها من العلم النظرى إلى الفن المنفوث فيه من ذوقه وروحه كانت عمارته التي يجمع علمه بالهندسة لإنشائها مختلفة اختلافاً تاماً فى مظهرها وتكوينها عن عمارة اليابانى التي ينفث فيها هو أيضاً من ذوقه وروحه ما ربته اليابان فى نفسه بمناخها ، وطبيعة أرضها وعادات أهلها ، ودينهم وأخلاقهم أيضاً .

فإذا اتفقنا على أن الفن وحده هو الذى يميز الشعوب بعضها من بعض — وهذا أمر أظن أنه قد أصبح ميسوراً أن نتفق عليه — رأينا أهل الفن المصريين الذين أحسوا وجوب ابتداع فن مصرى حديث يحقق منصفين وطنهم المسكين الذى طال شوقه إلى العزة الذاتية التي لم يعد لنا سبيل إلى تحقيقها إلا عن طريق الفن ما دمنا قد أدركنا أن الصناعات والعلوم إذا تشابهت فى الأمم لم يكن هذا مما يمس كيانها الذاتى ، وما دمنا مؤمنين بأننا متخلفون فى هذه الآفاق جميعاً عن غيرنا فلن نلحقهم فيها إلا بعد جهد .

نحن إذن لا نملك إلا أن نعجب بكل فنان مصرى يعمل لإنشاء الفن المصرى أو ينادى بإنشائه لأن فى عمله هذا سعياً إلى تثبيت عزتنا القومية .

ونريد الآن أن نتعرف الطريق الذى يؤدى بنا إلى هذه الغاية النبيلة ، وقد يرى القارىء بعد الكشف عن هذا الطريق أن مصر لا تزال عذراء وهى المليحة الحسناء ، وأن الفنان المصرى الظمآن إلى الجمال لا يزال بعيداً عنها كل البعد يبحث عن عروسه فى الفضاء ، وفى الهواء ، وهى تكاد تتخاذل من الشوق إليه ، وتكاد تستخذى من كثرة ما تبرجت وازينت وخطرت أمام بصره

وتهادت أمام بصيرته ، وهو يأبى إلا أن يغمض دونها عينيه ، وأن يخلف دونها نفسه كأنما هو يتقيها اتقاء وكأن بينه وبينها ثأراً .

وقد يحسن قبل أن نرف هذه العروس إلى هذا التعشق الحيران أن نحدثه عنها قليلاً

فما هي مصر ؟

هي أولاً هذه الأرض التي تعرفها والتي تتشكل الطبيعة فيها بثلاثة أشكال بارزة قد ترادفها أشكال أخرى . أما هذه الأشكال البارزة فهي هذه البيئات الجغرافية الثلاث : بيئة الصحراء ، وبيئة الريف ، وبيئة السواحل . وأما البيئات الأخرى فنذكر منها بيئات المدن ، والواحات ، والبحيرات . ومصر هذه يشقها من الجنوب إلى الشمال نهر النيل ، وتتناثر في شمالها وشرقها البحيرات ، ويجاورها من الجنوب السودان فيلون أهل جنوبها ببعض لونه الذي يمتصه من بيئته الجغرافية . وتكاد مصر بعد ذلك تنعزل عن أراضي جيرانها

أما سماء مصر فصافية مكشوفة لا تتلبد إلا عند السواحل فقط ، وأما مناخها فمعتدل هادئ أميل إلى الحرارة لا يضطرب ولا يبرد إلا عند السواحل أيضاً

هذه هي بيئة مصر الجغرافية وهي كما ترى بيئة سهلة لا تعقيد فيها ، وقد طبعت هذه البيئة السهلة أهلها بهذه السهولة ، فالمصريون فيهم من الطفولة البشرية ما في أرضهم وجوهم من الطفولة والسلاسة ، وهذه الطفولة نفسها هي أخصب مجال للفن إذا اتفقنا على أن الفن الصادق هو ما كان مبعثه الحس لا التفكير . والشعب المصري يشهد بهذه الحقيقة؛ فما من مصري إلا وله اتجاه فني خاص؛ وأغلب المصريين يتجهون إلى الغناء والنكتة ، والغناء فن ، والنكتة فن . هذا إلى جانب ما يشيع في المصريين على مر الزمن من إدمانهم لفن « التدين » الذي آثروه على بقية الفنون فتيسر لهم من ألوانه ما تتابع عليهم وعلى حياتهم منذ ألهموا فراعينهم إلى هذا الزمن الذي وحدوا فيه الله توحيداً صريحاً ، ولكنهم مع هذا التوحيد أبوا إلا أن يتزلفوا بالتقديس إلى أرباب القباب من الموتى ، وأهل الزعامة من الأحياء

فالشعب المصري إذن شعب فنان لأن أرضه تبعث الفن بما لها من السهولة والنقاء

فإذا فرغنا من دراسة مصر جغرافياً وجب علينا أن ندرسها بعد ذلك اجتماعياً . وقد لا يجهدنا هذا الدرس إذا سلكنا إليه أقرب السبل فقلنا : إن المصريين سكان هذه الأرض المتشكلين بأشكالها ، هم إما صحراويون طبعتهم الصحراء بطبعها ، وإما ريفيون شكلهم الريف بشكله ، وإما ساحليون لونهم البحر بلونه ... ولعلنا نعرف أن كل بيئة من هذه البيئات الجغرافية تؤثر في طباع أهلها تأثيراً خاصاً ، فأبرز ما يميز أهل الصحراء الشمم لدوام حريتهم وإبائهم الضيم ؛ وأبرز ما يميز أهل الريف الصبر لخضوعهم الإجباري لنظام الزراعة ومواقيتها ؛ وأبرز ما يميز أهل السواحل روح المغامرة التي يبعثها في نفوسهم التجول في البحر . وإلى جانب هذه الصفات البارزة في أهل كل بيئة من هذه البيئات الجغرافية صفات أخرى لابد أن يحسها الفنان، وقد يستطيع الباحث المتفهم أن يستطلعها

فرغنا الآن من مصر المعاصرة فألممنا بها أرضاً ومجتمعاً . ولكن مصر المعاصرة هذه ليست مصر كلها ، فإن لمصر تاريخاً ماضياً ، وإن لها آمالاً في المستقبل ، وإن لها في الحاضر نفسه صلات بغيرها من الشعوب ؛ وتاريخ مصر الماضي يتمم كيانها الحاضر ، ويساهم في رسم طريق المستقبل وتعبيده ، وإن آمالها التي ترجوها في المستقبل تحيا في حاضرها وتوقظ من ماضيها ما تستلزمه وما تريد أن تعتمد عليه ، وإن صلاتها الحاضرة بغيرها من الشعوب والأمم تسهل هي أيضاً في تيسير كيانها ، ولعل هذه الصلات هي أشد العوامل تأثيراً في الذات المصرية الناشئة ، ولعلها أشدها خطراً على استقلال هذه الذات ، فهي إذا دبت إلى العلم والصناعة ارتقت بالمصريين ، ولكنها إذا تمكنت من الفن المصري مضغت مصر وقذفتها إلى المتحكين بها لقمة سائغة

وقد يكون من الخير للإنسانية كلها أن تندمج وأن يتوحد ذوقها وعلمها ، ولكن يظهر أن هذه أمنية يصعب تحقيقها ، ويظهر أيضاً أن تحقيقها لن يتم إلا إذا سرى قانون بقاء الأصلح ، فإذا كان هذا حقاً فإنه يتعين علينا أن نجاهد كي نكون من الصالحين حتى لا تلتهمنا الإنسانية إذا كانت ماضية إلى التوحد . وإنها لماضية إليه . وكل الدلائل تدل على هذا المعنى وإن كنا نظن أن الفن وحده هو الذي سيبقى مميزاً لأصحاب الأوطان المختلفة بعضهم

من بعض ، وإن كان هذا التميز سيتقلص كثيراً حتى ينحصر في شكل الفن وأسلوبه وبعض روحه إلى أن يشاء الله غير ماشاء منذ جعل الناس شعوباً وأمماً ليتعارفوا

وعلى أي حال فنحن لا نزال في حاجة إلى فن مصري قوي. وها نحن أولاء رأينا أن الشعب المصري مفطور على الفن بطبعه : خلقته فيه بيئته وأرضه؛ فهل استطاع المتصدون لإبداع الفن في مصر هذه الأيام أن يشبعوا هذا الشعب فناً مصرياً ؟

هل يقرأ المصريون من أهل البيئات المصرية المختلفة ما يكتبه أدباؤنا المصريون؛ وهل يفهمه ويحسه الأميون منهم إذا قرئ عليهم؟

وهل يستطيع المصريون أن يستمتعوا بالصور التي يرسمها رساموهم ؟

وهل يتغنى المصريون بهذه الأغاني التي يرتلها المغنون اليوم؟

وهل ينشد المصريون هذا الشعر الذي يكتبه شعراؤهم وهل يعطفون عليه ويحبونه ؟

هل يقرر الواقع شيئاً من هذا ؟ كلا ؟ فالواقع يقرر أن أهل الفن عندنا في واد وأن الشعب المصري في واد . ويظهر أن ذلك راجع إلى أن نهضة الفن عندنا صاحبت نهضة الثقافة فخرج الفنانون المصريون من بين المثقفين ، والثقافة المصرية الحديثة كما هو واضح ثقافة مترجمة منقولة ؛ وليتها كانت مترجمة عن أصل واحد قريب من طبعنا ، وإنما هي أمشاج من ثقافات شعوب مختلفة لكل منها ذوق ولكل منها طبع . ولقد كان هذا الاضطراب سبباً في اضطراب العقل المصري المثقف ، واضطراب النفس المصرية المثقفة . فالفنان المصري المثقف يخرج فناً قد عبثت به الثقافة المضطربة هذه فهو كالخليط المتباعد الأخلاط ، وليس كالمزيج الذي اندمجت عناصره فأصبح بهذا الاندماج عنصراً جديداً له ذات جديدة وكيان جديد

لهذا يستوحش المصريون هذه الفنون المثقفة ، ولهذا يحب المصريون فنونهم الساذجة البلهاء التي ينتجها فنانون لا يعرفهم المثقفون وقد لا يعرفهم الشعب نفسه وإن كان يتعشق فنونهم

لهذا كان علينا إذا أردنا أن ننشئ الفن القومي أن نسلك سبيلاً من سبيلين : فإما أن نصبر على هؤلاء الفنانين المصريين من غير المثقفين حتى يرتقوا وينضجوا فيختاروا مكانهم التي توهلهم الطبيعة لاحتلالها ويكون هذا أمراً طبيعياً لا يعترضه معترض ، وإما أن نحز نفوس المثقفين من أهل الفن عندنا ليتيقظوا من ثقافتهم وليعودوا إلى الطبع المصري ، وأظن أنه ليس من العسير على الإنسان أن يسترد نفسه ، وأن يسترجع أصله ، وأن يستعيد طبعه وأن يغسل نفسه مما لصق بها من الزيف

ها هي ذي مصر أمام الرسام ، وها هي ذي بيئاتها المختلفة ماثلة أمام عينيه بما فيها من ناس وحيوان ونبات وجماد ، وها هي ذي أخلاق أهليها وعاداتهم تناوش نفسه ما دام يعايش أهلها ويعاشرهم . أفلا يستطيع الرسام المصري إذن أن يقف وقفات كثيرة عند مظاهر كثيرة ومعان كثيرة من مظاهر الجمال ومعانيه في هذه البيئات المصرية المختلفة ؟ ! إنه يستطيع لو أنه فتح عينيه واستقبل الصور التي تتلقيانها بنفس مصرية . ولا ريب أن القارئ قد لحظ أن عقائد المصريين — مثلاً — لا تزال بعيدة عن التصوير المصري . فمن من المصريين رسم صوراً لقصة السيد البدوي ! وللسيد البدوي عند المصريين أقاصيص فيها مواقف تستحق الرسم والتصوير ؟ ومن من المصورين المصريين صور الحاوي المصري ؟ ومن منهم صور « شيخ الطريقة » ومن منهم صور « بطولة أحمس » ومن منهم صور « غزوة السودان » و « أهل الكهف » و « زفة العروسة » و « رقصة البدو » و « صيد التمسة » و « معركة في الأسكندرية » و « البحث عن أم الخلول » و « صانع القلل » و « عامل المحلة » و « نكتة رشيد » وما إلى ذلك من الموضوعات المصرية البحتة التي لو أخرجت في ألوانها المصرية الطبيعية الصحيحة لأرضت كل إحساس وكل فكر .

وها هي ذي مصر عند سمع الموسيقى : لماذا لا يغني أهل الصعيد هذه الألحان التي تصاغ في القاهرة ؟ ألأن لهم لهجة في الكلام غير لهجة القاهريين؟ كلا، فلهجات الكلام لم تكن يوماً حجاباً دون النغم. فها هي ذي الأوبرات الإيطالية تستبيق ألحانها وأنغامها كما صاغها ملحنوها ويستبدل بنظمها نظم انجليزي في انجلترا وفرنسي في فرنسا وألماني في ألمانيا فلا ينفر الانجليز ولا الفرنسيون ولا الألمان من الموسيقى الإيطالية في هذه الأوبرات مثلما ينفر أهل الصعيد من الموسيقى القاهرية ... فهل يدل هذا على شيء

أكثر من أن اعوجاجاً أصاب الذوق الفنى فى القاهرة فخرج به على الطبع المصرى إذ أراد التجديد ؟ أولا يدل هذا على أن أصحاب التجديد قد انخدعوا فى تجديدهم إذ أرادوا أن يلاحقوا به تجديد سيد درويش وهم لا يذكرون أن موسيقاه كانت رجعة إلى الطبيعة الإنسانية وصحوة ارتجعت بها الروح المصرية . والدليل على ذلك أن ألحانه التى صور بها بيئات المصريين كانت تعبيراً صحيحاً صادقاً عن النفس المصرية فراجت بين المصريين رواجاً رائعاً ، ومنها ما لا يزال يطن فى الأذن إلى اليوم مثل « طلعت يا ما احلى نورها الشمس الشموسة » و « مليحة جوى الجلل الجناوى » و « يا ولد عمى يا بوى » و « ياصلاة أم اسماعيل فى وسط عيالها » ...

ويحق علينا ما دمنا نرى إلى إحقاق الحق أن ننصف الموسيقيين المصريين فنقرر أن الأصوات الطبيعية التى يمكن أن تنقل عن البيئة المصرية الطبيعية قليلة ، فليس فى مصر زوابع ولا أعاصير ولا أمطار ولا رياح ولا غابات تصفر فيها الريح وتزأر فيها الأسود ، ولا شىء من هذا الذى تنعم به البيئات الأخرى ، ولكن ليس معنى هذا أن بيئتنا المصرية مجدبة مما يوحى الموسيقى ، فإن فى هدوئها وتخافت أصواتها ورهبتها وجمالها وخفتها وجلالها ، وما فى مجتمعها وتاريخها وآمالها ما يصلح لتأليف أنصع الموضوعات الموسيقية المنشودة . ولا يتوقف ذلك إلا على شعور الموسيقيين المصريين ببيئتهم المصرية وما فيها .

ونحن الآن مع الأدباء أمام الحياة المصرية . وللأدب فى مصر مشكلتان لا مشكلة واحدة : أولاهما مشكلة «الموضوع» التى تعرضنا لها فى الرسم والموسيقى ، وأخراهما مشكلة «اللغة» فنحن فى مصر نتكلم لغة ونكتب أخرى . ولنتائا على تقاربهما الشديد مختلفتان لا يمكن أن ينكر اختلافهما إنسان . وعلى أساس ما قررناه كان أقرب الأدب إلى طبع المصرى هو أقربه إلى لهجته وكلامه إذا عالج موضوعات من حياته كما يفعل الأديب المصرى الصادق محمود بيرم التونسى ، فأدبه مستخلص من الحياة المصرية ، ومؤدى باللسان المصرى .

على أننا نستطيع أن نتصور اللغة العربية الفصحى ، وقد راجت بين المصريين إذا تعلموا القراءة والكتابة ، ومع هذا فإننا لن نستطيع أن نتصور أن هذا سيمحو ضرورة اتصال الأدب المصرى بالحياة المصرية . فالتساهل فى أمر اللغة لا يؤثر فى روح الأدب . وإن للمصريين ذوقاً وطبعاً إذا لم يظهرا فى الأدب المصرى كان أدباً عربياً أو غير عربى ، ولكنه على أى حال لن يكون أدباً مصرياً . وقد يحس القراء معى أن فى شعر الشاعر الفذ محمود حسن اسماعيل تحقيقاً لهذا الذى نرجوه . فهو وإن كان يكتب باللغة العربية الفصحى فإنه لا يطرق إلا موضوعات مصرية صحيحة ، ولا يؤديها إلا أداء مصرياً سلساً يلحظ فيه الذوق المصرى وإن لم يتقيد فيه باللفظ المصرى .

فإذا تركنا هذه الناحية الناعمة من الذوق المصرى وعرجنا على الادب فى جوهره رأينا الأقلية من الكتاب والأدباء هم الذين يعالجون الموضوعات المصرية ، ورأينا هؤلاء الذين يبسطون للناس أدباً مصرياً صحيحاً متهمين بأنهم أدباء « شعبيون » بعد تحويل الوصف الشعبى من معنى المدح إلى معنى الذم

عزيز أحمد فهمى

كان ذلك أمنية بعيدة المنال...

أما الآن بعد ما نجح العلم الحديث فى اكتشاف أسرار الصرصور فى الجسم وقدم لنا علاج الحب باسم لولوتيطس فقد صار فى قدرتك أن تسعد قلوب شبابك المفقودة باستعمال هذا المستحضر . إن لولوتيطس يعمل تحت رقابة سكرتارية سيد مهد الناسلبا الشهيد بمدينة برلين . لكى تقف على حقائق المسألة الجنية يجب أن تطالع كتاب « الحياة الجديدة » الذى يمكنك الحصول عليه نظير ٥ للشعرة الفرنسية أو الانجليزية الواردة برسم ذات خمسة ألوان أو ٣ للشعرة العربية . أرسل المبلغ طوابع بريد الى جلا نهور رمين - صندوق بوستة ٢١٠٥ بمصر ارفضوا كل علبة غير مكتوب عليها : تعبئة خاصة للشرق جرعة قوية